

اللعبة الكبرى:

الشرق العربي والمنافسة الدولية

Le Grand Jeu:

Orient arabe et rivalités internationales

Par: Henry Laurens. Paris: Armand Colin, 1991.

ميزة هنري لورنس أنه كتب ونشر أول تركيب زمني للتاريخ الدولي لدول الشرق العربي في النصف الأخير من القرن العشرين. تنتظم هذه الدراسة في ثمانية فصول كثيفة تعطي نظرة عامة. وهذه الأجزاء المختلفة غير مقطعة، إذ تتداخل زمنياً (الفصول ٣ و ٤ و ٦ و ٧) من دون أن تؤدي بالقارئ إلى الارتباك؛ فالصفحات الخمسون الأولى، المخصصة للقرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، مبررة كل التبوير لفهم الموضوع الذي ينطلق من نهاية الحرب العالمية الثانية. كما أن العودة إلى الوراء لإلقاء نظرة على السياسة الفلسطينية فوراً، قبل الخوض في نشأة منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٤، كانت ضرورية. وإذا كان التصميم العام للكتاب لا يتطابق مع ترتيب تصنيفي للحقب، إلا إن في إمكان القارئ أن يستخلص تطورين كبيرين على الأقل: "زمن الثورات" (الموضوع الرئيسي للفصل الثالث)؛ وحقبة "الحفاظ على الدول العربية وتمتينها" (الفصلان ٤ و ٥ وما يليهما).

المفيد في كتاب هنري لورنس أنه يدمج الصراع العربي - الإسرائيلي ونتائجه في استراتيجية كل من الفرقاء المحليين.

تعتمد دينامية الكتاب على استعمال المؤلف لانبعاث الفكرة الوجدانية العربية في القرن العشرين، إذ يوفق في التذكير بالسوابق التاريخية (العروبة التقليدية، والعروبة الإسلامية، والعروبة التاريخية)؛ فالوحدة العربية، وهي مطلب جميع التيارات الوطنية والإسلامية، تشكل الموضوع الذي يتردد دائماً في الخطب السياسية في الشرق الأدنى. وقد استخدمت الحكومات كلها، أكانت جمهورية أم ملكية، هذا المثال للمحافظة على الدول الإقليمية التي تحكمها. فالمشاريع (ونذكر على سبيل المثال طموحات الملك عبد الله)، والقوانين، ومؤتمرات القمة، والوحدة الاندماجية بين

الدول (وحدة مصر وسوريا خلال ١٩٥٨ - ١٩٦١ التي شكلت الجمهورية العربية المتحدة)، ما هي إلا ترجمة لإرادة الوحدة العامة إلى الواقع. يقوم هنري لورنس بمجابهة المثال الوجودي بالقضية الفلسطينية فيشرح، طوال ٤٠٠ صفحة، كل كانت القضية محرك الوحدة العربية وعامل تفرقه في آن واحد. لقد اعتبر الأعضاء المؤسسون لجامعة الدول العربية، حين إنشائها في آذار/مارس ١٩٤٥، غياب التسوية بين اليهود والعرب في فلسطين واحداً من هدفين ذوي أولوية. وقد تبنت الدول العربية طوال عشرين عاماً، متحملة بذلك مسؤوليات إضافية، قضية فلسطين في غياب منظمة فلسطينية أو دولة فلسطينية. لكن، في أوائل الستينات، كان إثبات هوية فلسطينية متباينة عن القومية العربية من بعض ما أدى إلى المواجهة سنة ١٩٦٧. إذ كانت الوحدة العربية تبدو مهمشة أكثر من أي وقت مضى عشية حرب حزيران/يونيو. يقول هنري لورنس: "في حزيران/يونيو ١٩٦٧، نعبر من إسرائيل والرفض العربي إلى فلسطين والرفض الإسرائيلي." ومنذ ذلك التاريخ بدأت العروبة، التي شكلت الأساس الأيديولوجي لعدد من الأنظمة العربية، تفقد وهجها من دون أن تختفي كلياً، وذلك في مصلحة التيارات الإسلامية (راجع الفصل السابع: "العروبة في أزمة"). وما إنشاء قوات الردع العربية سنة ١٩٧٦ لحل المشكلة اللبنانية، ومشروع ميثاق صدام حسين العربي سنة ١٩٨٠، إلا هبتان لا طائل فيهما. ويأتي إنشاء مجلس التعاون الخليجي سنة ١٩٨١ ليؤكد تقديم الهم الاقتصادي على ما عداه. وخطّ هنري لورنس لنفسه، ثانياً، محور تفكير أساسياً فيما يخص علاقة الدول العربية بالحدثة؛ فهذه الدول المكوّنة منذ زمن ليس ببعيد، عقب انهيار السلطنة العثمانية التي كانت تقدم لها هيكلية وحدة غريبة، لم تتمكن من الاستمرار إلا من خلال استراتيجية التوتر النابع من الصراع العربي - الإسرائيلي. وهنا يؤكد المؤلف أن الممثلين الإقليميين أصبحوا دولاً قوية ذات أنظمة ديكتاتورية تحت وطأة هذا الصراع؛ إذ إن استحالة توقيع السلام مع إسرائيل، سنتي ١٩٤٩ و ١٩٥٠، دفعت هذه الدول إلى مضاعفة قوة جهازها العسكري عشرين أو خمسين مرة خلال الأعوام الأربعين الأخيرة. وما يطرحه لورنس دلالة على أن الصراع مع إسرائيل كان في أس خيار الدول العربية لتنمية قواها العسكرية على حساب قواها الاقتصادية. والاستثناء اللبناني الوحيد يؤكد هذا الرأي بكونه مثلاً مضاداً فاضحاً.

إن الفصل المخصص للصراع العربي - الإسرائيلي سنة ١٩٤٨ (الفصل الثاني) يذكر القارئ غير المطلع أو يعلمه بوجود حرب فلسطينية أولى كانت قد سبقت الحرب

التي بدأت في ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨، ويظهر اتفاقات الهدنة لسنة ١٩٤٩ ومحاولات مؤتمر لوزان المنسي.

وفي الفصل الثالث يظهر لورنس أنه ليس فقط اختصاصياً بالحملة على مصر والقرن التاسع عشر المصري؛ فقضية قناة السويس تبقى إحدى النقاط المميزة في الكتاب. أما الفصل السابع، "العروبة في أزمة"، فيخرج قليلاً عن سرد الوقائع ليحلل التيارات الإسلامية في السبعينات (ما عدا الوهابية) بوصفها "شكلاً جديداً لأفكار العالم الثالث".

إن المؤلف، باختياره الحقبة المدروسة وتطبيقه المنهجية المستخدمة، قد جعل كتابه هذا كتاب تاريخ ومسرداً زمنياً منطقياً في آن واحد؛ إذ إن في الكتاب مادة دسمة للتأمل، سواء بالنسبة إلى الاختصاصيين أو بالنسبة إلى الطلاب أو القراء العطشيين إلى المعرفة. فهو يأتي بتركيب نادر وثمانين بين الكتب المنشورة باللغة الفرنسية. ومنهجية المؤلف تعتمد على وثائق ضمن النص أجزاء كبيرة منها. أما من الناحية الشكلية، فما يؤسف له عدم التمييز في الطباعة بين نص الكاتب ونص الوثائق، وغياب لائحة بالوثائق كان من شأن توفرها أن يمكن من إيجاد الوثائق بسهولة أكبر، وخصوصاً أنها عديدة ومتنوعة: قرارات مجلس الأمن؛ مراسلات؛ خطب؛ موثيق؛ خرائط؛ اتفاقات؛ مؤتمرات؛ رسائل. ونرى أن الكتاب يحتاج إلى بعض الحواشي التفسيرية إلى جانب التوضيحات المتعلقة بتعابير الشرق الأوسط، والشرق الأدنى، والعروبة. ويمكننا أن نقترح للطبعات المقبلة إضافة فهرس خاصة بالموضوعات والمواقع الجغرافية (خصوصاً عندما يكتشف القارئ أهمية مضائق تيران ومياه نهر الأردن في تاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي)، مع اعترافنا بأن فهرس الأعلام ومجموعة الخرائط تكملة ممتازة للتوثيق. أما فهرس المراجع، المستند إلى مؤلفات فرنسية وأميركية وبريطانية، فيبدو مقتضباً بالنسبة إلى الحقبة المدروسة، وهو في الحقيقة أقرب إلى أن يكون نقدياً من أن يكون شاملاً، لكنه يجنب القارئ بعض الشطط.

غير أن لورنيس يذهب إلى أبعد من اللوحة الشاملة للوقائع، فيطرح مشكلة التنافس الدولي في الشرق العربي. وقد نلومه على نقص في تكوين المفهوم، لكن هذا لم يكن هدف المؤرخ. فمن خلال التاريخ السياسي لمصر والسعودية وغيرهما من البلاد، يصف المؤلف "القوى العميقة" التي تحرك العلاقات الدولية؛ إذ إن ما يحدد وجهة هذه العلاقات هو التطورات الديموغرافية والاقتصادية، ناهيك بالعلاقات بين

السياستين الداخلية والخارجية. فالضعف الديموغرافي في السعودية دفع هذا البلد إلى تنمية تسلحه، في حين أن النمو الديموغرافي الصاعق في مصر لم يؤد بها إلى العكس. أما في لبنان، فاقتسام السلطة يستند إلى توزيع طائفي يمكن للنمو الديموغرافي أن يقلبه. والمؤلف يأخذ بعين الاعتبار ظاهرات الهجرة، وهو يغفل تماماً التاريخ الاقتصادي من دون إخفاء موضوع النفط، فيتبسط في تنظيم سوق النفط في فترة ما بين الحربين، ويحلل "الذهب الأسود" كسلاح في الصراع العربي - الإسرائيلي. وقد طرحت هذه المسألة في مؤتمر قمة الخرطوم في آب/أغسطس ١٩٦٧، وكان الرد رفض هذا الطرح من قبل الدول المنتجة للنفط كي تتمكن من تنمية اقتصادها، لكنها أيدت خلال حرب تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣ استعمال النفط سلاحاً. وقد أعيد طرح هذه المسألة على الأنظمة الملكية في الخليج خلال الحرب الإيرانية - العراقية (الفصل الثامن). ولقد كان مستحباً لو قام المؤلف بتحليل السياسات المالية في الدولة العربية تحليلاً مقارناً ومنهجياً. أما العلاقة بين السياستين الداخلية والخارجية، فهي نقطة تتردد في الفصول كلها تقريباً: شواغل الرئيس الأميركي ترومان، واشتراكية عبد الناصر العربية، وتأثير الحزب الشيوعي في مصر، أمور لم تكن من دون تأثير في العلاقات السوفياتية - المصرية. وإن صعوبة الإمساك بتعقيد "الرأي العام العربي" من جهة، والهوة بين المحكومين والحاكمين من جهة أخرى، لا يسهلان دراسة السياسات الداخلية وتأثيراتها على الصعيد الخارجي وبالعكس. والدليل الأكبر في هذا المضمار هو مثال السادات.

إن خصوصية الصراع العربي - الإسرائيلي تكمن في خطر تدويله.

وقد حلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بالتدرج مكان الدول

الأوروبية القديمة المنتدبة. إذ إنهما يتجاذبان، بالتناوب، الدول العربية التي تتمسك في الوقت ذاته بورقة عدم الانحياز. فالأزمات والحروب المختلفة تظهر تفاعلاً مستمراً بين الدول العربية والقوى العظمى الخارجية. وبصورة عامة، فإن حل الأزمات يمر باللجوء إلى التدويل. وقد أدى تعارض الجبارين إلى مجابهة مباشرة بينهما سنة ١٩٧٣. وكانت الصورة التقليدية لتعارض الجبارين تتكرر على الصعيد الإقليمي بين الدول العربية. والمثال التام لهذا الوضع هو المواجهة بين عبد الناصر وفيصل في الستينات، إذ شكلت حرب اليمن قمة المواجهة بين الزعيمين، وجمدت متابعة الصراع العربي - الإسرائيلي، وعرضت جهود التصنيع المصرية للخطر. وهنا أيضاً يبرز

بوضوح مأزق الدول العربية: كيف توفّق بين حل للصراع العربي - الإسرائيلي وبين تنمية طاقاتها الاقتصادية.

وبكل تأكيد، لا يطرح هنري لورنس تفسيراً وحيداً لـ"اللعبة الكبرى" بين القوى الإقليمية والخارجية. فالاستعانة بهذه العبارة التي استُعمرت من كيبلينغ تعطي، في نظر المؤلف، صورة للألية التي تحرك تاريخ هذه المنطقة. وهكذا يتحقق التدويل عند كل مواجهة عسكرية. لكن تبقى نقطة ضعف هذه الدراسة المخصصة للشرق العربي: فهي لا تشمل السياسة العربية لكل من تركيا وإيران.

أخيراً، فإن كتاب هنري لورنس يشكل دليلاً ممتازاً للقارئ الذي يريد أن يتّلع على الصراع العربي - الإسرائيلي، أو يريد أن يفهم حرب لبنان، أو أن تكون له نظرة شاملة تجاه تدخل الدول الكبرى في الشرق الأدنى، أو أن يتفحص مختلف المشاريع (مشاريع جونستون وروجرز وريغان وفهد، إلخ). أما بالنسبة إلى الخبراء، فهذا الكتاب يُعدّ ذا أهمية تاريخية.

ماريان دوران - لاكاز

(نقلاً عن: REP, No. 39)

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>